العدد ٢٨٢
٢٠/١٢/١٩٩٥م
٢١/١/١٩٧٦م

الرواية والرواية

١

« اميل اجار » اقتحم بجسارة - منذ اسابيع - الواجهة الادبية في فرنسا .. انتهك حرمتها .. وغرز كل رماحه في صدرها .. ثم اختفى دون ان يستطيع احد من المكلفين بحراسة الواجهة ان يحدد هوية هذا « الفاتح » او هذا المغتصب !

جاءها «بكرا» كالصبح .. فعاشرها مرتين.. تركت في جيوبه - دون ان يدري - كل مفاتيح « القصر » والخزينة ليدخل لزيارتها متى شاء .. وليحلي يديه وعنقه بذهب الكنوزالسحريه متى شاء !

جاءها ملثما يخطب الود او يغتصبه ! فغادرها ملثما ايضا .. لا احد يعرفه .. ولكن على جبينه تاج « الظفر الذي يحمل تواقيع اكثر حرس الواجهة والاوصياء عليها !

« اميل اجار » احد ادباء الشباب الفرنسيين.. لازال اسمه يسيل حبرا كثيرا على اعمدة الصحف الفرنسية !

كل الادباء والصحفيين الفرنسيين لايعرفون كاتبا بهذا الاسم .. عندما اصدر في العام الماضي كتابه :

"havie devant soi"

رحب به عدد من النقاد ولكنه لم يثر اي فضول لمعرفته او للبحث عنه .. اما هذا العام وبعد ان اذشل من بين ايديهم - جميعا - اكبر جائزة ادبية في فرنسا بروايته الجديدة الثانية :-

"Gros-calin"

اي .. « الحياة امام الذات » فقد تغيرت الجال كان لابد ان يعرفوا من هو هذا « الولد » الشرس الذي جاء من الظلام مقنعا بالف حجاب وحجاب لينهب من بين ايديهم الفارغة الجائعة .. المتلهفة .. المنتظرة اكبر جائزة ادبية .

كيف يحق لهذا « الملثم » ان يدخل هكذا دون سابق انذار - فيحظى بيد العروس وقلبها ...

ثم يقودها من بينهم بكل هذه السهولة وهم الذين قضوا اعمارا طويلة من اجل نيل الحظوة عند هذه الفاتنة !

بعد ان اردفها على حصانه نظر اليهم جميعا ساخرا من قفر ايديهم .. وقفر قلوبهم .. راثيا كبرياءهم التي طعنتها الحسرة والوجد .. ثم عاد ::ذفها نحوهم من جديد فسقطت على الارض لينتشع ثوبها عن اجزاء واضحة مما فوق ... شجت جبهتها ايضا .. فانفلتت تبكي وفارسها يغيب من جديد في غبار حصانه .. في الظلام !!

ردوا عليها ثيابها .. ونفضوا الغبار عن راحتيها وعن وجهها .. ثم اخذوا يجدون في البحث عن هذا «الشقي» الذي اثار فضولهم .. مرتين : ـ الاولى ـ عندما لانت له العروس .. فاخذارته من بينهم .. والثانية عند رفضهاوذهب وكله كبرياء .. او كله غرور !

اجل ! .. « اميل اجار » هذا الاسم المجهول منحوه جائزة الـ « قونكور » لثاني رواية في حياته الادبية .. ولكنه رفضها !

قيمة هذه الجائزة المادية : ـ

● ● مبلغ قدره ثلاثون الف فرنك فرنسي ـ ـ نقدا ـ اي مايعادل سبعة وعشرين الف ريال سعودي تقريبا .

● ● ومبيعات بارقام هائلة للرواية الفائزة .. واكتساح لاجدال فيه للسوق الادبية في فرنسا وفي اوروبا .

اماقيمتها المعنوية فهي : ـ « اعتبار » طليعي لدى الاوساط الادبية ولدى الاوساط القارئة .. سيجني كل ثماره هذا الاديب الشاب طيلة حياته .. وحتى بعد ان يموت .. لان جائزة اكاديمية الـ « قونكور » جائزة جادة لاينالها الا من اكتمل تجهيزه موهبة .. وثقافة .. وعطاء .. فبرز على اقرانه ومنافسيه .

مجرد نيل هذه الجائزة يثير في نفوس كل

الناس ـ صحفيين وادباء وقراء ـ الفضول لمعرفة « المتوج » الجديد ·· ولكن ان يرفض هذا المتوج الجديد « التاج » ويقذف به الى الارض كما فعل « اميل اجار » فهذا عامل اخر يزيد في اشعال جذوة الفضول لمعرفة هذا الجريء ·· او « الوقح » الذي مد رجله في وجه المجد والشهرة · ·وفي وجه الاكاديميين الفرنسيين ·

ذهبوا يبحثون عنه في كل مكان !· لا احد يعرف كائنا حيا بهذا الاسم ·· ومكاتب الجوازات والجنسية في فرنسا لم تعط يوما هوية او « جواز سفر » لشخص بهذا الاسم · ·وفي ارشيف البوليس لايوجد بطاقة باسم « اميل اجار » !

بعض الادباء الذين كانوا يتطلعون الى الجائزة الكبرى بدات تهون امامهم « الذهبية » اذ اخذوا يعزون انفسهم باعتقاد ان « اميل اجار » مجرد اسم مستعار لاحد الكتاب الكبار جدا والذين يستحقون ـ فعلا ـ نيل هذه الجائزة ·

لجنة التحكيم في الاكاديمية والتي تمنح الجائزة هي الاخرى لاتعرف من هو « اميل اجار » وعندما اعلنت في الصحف وعبر محطات الاذاعة والتلفزيون بانه هو الذي نال الجائزة كانت قد تظل ان يجيء اليها شخص بهذا الاسم لاستلام الجائزة !·· ولكنه لم يات فكانت الحيرة الشديدة في الاكاديمية ·· ايضا ·· ازدادت هذه الحيرة تعقيدا عندما تلقى السيد « بازان » رئيس لجنة التحكيم واحد كبار كتاب الرواية في فرنسا تبليغا تليفونيا برفض « اميل اجار » للجائزة !!

كاد يتاكد في اذهان كل الناس انه اسم مستعار ـ فعلا ـ لاحد الروائيين الكبار ·· قالوا انه الكاتب الفرنسي « موريس بون » ·· وقالوا انها الكاتبة ايفون بابي ·· وقالوا انه الكاتب « رومان جاري » ·· وهذا الاخير له « سابقة » من هذا النوع ·· اذ انه في العام الماضي تستر تحت اسم مستعار هو « شاتان بوقا » عندما اصدر روايته رؤوس ستيفاني » · ·ولتضليل القراء والنقاد كتب على الرواية بانها مترجمة عن الادب الامريكي وزيادة في هذا التضليل كتب بان مترجمتها كاتبة روائية اسمها « فرانسواز لوفا » وكتب على غلاف الكتاب نبذة عن حياة هذه المترجمة المزعومة والتي لم تولد قط ·· وادعى كذلك بانها سبق ان اصدرت رواية !!

ولكن !· ·

اخيرا ·· لم تدم هذه التكهنات مدة طويلة ·· اذ مالبث ان ظهر كاتب رواية « الحياة امام الذات » على حقيقته ·· صحيح ان « اميل اجار » اسم مستعار ·· ولكنه ليس لكاتب كبير ولا لروائي معروف وانما لاديب شاب مغمور مجهول ·· بدا دخوله الى الساحة الادبية برواية سابقة صدرت في العام الماضي ·· بنفس اسمه المستعار هذا « ذكرت اسمها في بداية هذا الموضوع » تحمل اكبر جائزة ادبية للموسم الادبي الحالي بروايته الثانية والتي صدرت هذا العام ·

موهبة نادرة فعلا ··!

اسمه الحقيقي : ـ بول بافلوفيتش ·· وهذا الاسم ايضا لايعني اي شيء لكل ادباء ومثقفي فرنسا ·· متزوج وله بنت ·· لايحب ان يتحدث الناس عنه ·· ويكره ان يرددوا اسمه في كل مناسبة ·· يطمح الى اقتناء عدد كبير جدا من القراء ـ وهذا ماحصل له الان ـ ولكن دون ان يكتشفوا شخصيته الحقيقية ·

عملية تسترد المكتسبات ·· وعملية رفضه للجائزة الادبية فسرها اكثر النقاد على انهـــا مجرد حملة دعائية للكاتب وللرواية ·· من شانها ان تزيد في مبيعات الكتاب وفي شهرة الكاتب ·

الكاتب الروائي « بازان » رئيس لجنة التحكيم ، عندما تبلغ برفض اجار للجائزة قال : ـ « جائزة الغونكور مثل الولادة او الموت لاتنتظر قبولا كما انه لايردها رفض ·· فهي تاتي للانسان وتلتصق به بالرغم منه ونحن منحنا الجائزة لرواية جيدة ·· ولم نمنحها لاسم معين » · ·

وقال ايضا : « ان لم يكن اميل اجار يريد بما فعل زيادة الحملة الدعائية له ولروايته .فيرفض ارباح مبيعات الرواية في السوق لان زيادة هذه المبيعات انما جاءت بفضل منحنا له الجائزة ·· فكانها جزء من الجائزة » !

● ● الجائزة والكاتب :

الموسم الادبي الفرنسي لهذا العام قالوا انـه فيه « عافية ! » تامة لانه فتح ابوابه على اكثر من مائة وخمس وثلاثين رواية جديدة غير المؤلفات والمصنفات الاخرى في الحقول الادبية والانسانية المختلفة · وقالوا ايضا انه ـ اي الموسم ـ يئن من امراض هزال عصبية لان اكثر تلـــك الانشاءات الادبية كانت مهترئة وكانت تبشر بالموت وبالاندثار لاكثر الفنون الادبية ومنها الرواية !

وفي الوسط الادبي الفرنسي جوائز علمية وادبية كبرى كان يجب ان تتسابق الى نيلها الاعمال الادبية الصرفة الناجحة ·· واهم هذه الجوائز : جائزة الغونكور ··· والاكاديمية الفرنسية · و رونودو ·· و فيمينا ·· و مديسي ·· واميل اجار نال اكبرها ·· الغونكور ·

في كل هذه الجوائز اكثر مايهم الكاتب الفرنسي عموما قيمتها المادية ثم تاتي بعد ذلك قيمتها المعنوية وان كنا بمعنى ما لانستطيع فصل احدى القيمتين عن الاخرى فصلا تاما ·· فهم هنا يتحـــدثون عن ارقام المبيعات والارباح المادية التي يحرزها الكاتب قبل الحديث عن المجد او رومانتيكية الشهرة ·· ليس فقط لان الكاتب ينغمس لا راديا فـي الكالب المادي الذي يميز مجتمعه الحديث اليوم ولكن لان ارقام الارباح التي يمكن ان تتحقق من خلال نيل مثل هذه الجوائز هي ارقام خيالية في عيون « ادباء كل ثروتهم ـ غالبا ـ قيمة الحبر والورق الذي يسكبون عليه عواطفهم وافكارهم·

ارقام تفوق اللايين في اكثر الاحيان ·· ليس فقط لتوفر عدد هائل من الناس الذين يحبون القراءة ··ولكن لان هؤلاء القراء ياخذون اراء لجـــان التحكيم التي تمنح هذه الجوائز كاحكام نهائية وقطعية بريادة الرواية الفائزة او المختارة ··· فيقبلون على قراءتها واقتنائها بشكل جنوني كما يحصل الان لرواية اميل اجار والتي وصل رقـــم مبيعاتها في خلال اسابيع فقط الى اكثر مـــن مايون · ·ومن هنا يتوفر للكاتب ان يقول بانه فنان فيرضي بذلك قناعته الشخصية ويحق له ان يقول انه (غني) فيرضي بذلك منطق مجتمعه الحديث الذي لايقبل في اكثر الاحيان سوى اصحاب الجيوب الغليظة !!

عندما يحلم كاتب غربي بجائزة ادبية فانه ·· بالضرورة يفكر في العائدات المالية اولا · ·فلا تلوموه !!

● ● الرواية · ·ومجانية التعبير :

باختيار (الحياة امام الذات) كرواية اولى

للموسم الادبي الجديد الوسط الادبي الفرنسي
او القائمون على تعهد واجهة الفكر الروائي في
فرنسا يفتحون الباب – واسعا – امام اسلوب
قصصي معين .. وهو اسلوب تلافي اتساع البعد
بين واقع (الحدث) وابطاله وبين لغة (القص)
او لغة التبادل في (الحكاية) ادراكالاهميةمايمكن
ان ينشئه هذا الاسلوب منانسجام بين الرواية
كموضوع وكحياة ضميرية او ضمنية وبينالقارىء
كمريد للمتعة او كطالب لاشباع (تصور) معين
يقوم بالحاجة او بالضرورة .. فلغة الرواية
يجب ان تاتي مستوحاة من واقع الحدث ومن
مستوى ابطال الحدث .. اعنيمستواهمالاجتماعي
والسياسي والثقافي الخ . واميل اجارتروائي
موهوب استطاع ان يوفق الى حد بعيد في الافادة
من هذا (النفس) الروائي الصعب .. هذا
النفس الذي قد يبدو مطواعا لان ادواته اللغوية
ادوات ميسورة ولكنه في الواقع عسير مخسن
للشفافية المتناهية التي يتطلبها اتخاذه وللدرجة
الحادة من الذكاء التي يستدايها مدى التوفيق في
تصعيده مع تطور الحدث وروح (القص).

الادوات اللغوية – مثلا – ميسورة ومن هنا
تاتي خطورة هذا الاسلوب او شفافيته فبدرجة
معينة من الخدمة والموهبة يسمو الكاتب في بناء
الجملة واستجلاب الصورة الموحية وبدون ذلك
المستوى من الخدمة قد يهوي الى درجة الابتذال
والاسفاف والتردي فكل الاطفال يتكلمون لغـــة
واحدة .. وحصيلتهم اللغوية او الفكرية حصيلة
واحدة عندما يتحدث بلسانهم (قاص) فاشل فانه
غالبا مايسف ويبتذل فيستخف قارؤه ومن ثم لا
نقوم بين ذلك القارىء وبين ذلك الرواية وابطالها
اية علاقة ادبية او روحية .. ولكن عندما يتحدث
بلسان هؤلاء الاطفال روائي حاذق موهوب ..
فيستعمل نفس مفرداتهم ولكنه باستعماله الحاذق
لمفرداتهم تلك يستطيع ان يدخلهم الى قلوب كل
قرائه .. احيانا في اطار التشويق .. واحيانا في

اطار البراعة في بناء الحوار ·· ومثل ذلك يمكن ان يقال عن لغات الفئات الاجتماعية الدنيا ·· كالسوقية ونحوهم · ·وهذه هي اهم ميزة وشح بها اميل اجار قلمه في روايته (الحياة امام الذات) ·

(الحذق) الروائي لهذا الكاتب يظهر بجلاء في روايته هذه ·· مع انه سبق ان اعطى اشارات جسورة الى هذا الحذق ، في روايته الاولى « قرو كالان » فهو عموما يتمتع بدرجة فائقةمن الهيمنة على لغته ومن القدرة على بناء الجملة القصصية المشوقة ·· احيانا تكون لاذعة ·· واحيانا تكون ساخرة ·· واحيانا تكون مضحكة ·· وهذه امور تعني اشياء كثيرة بالنسبة للقارىء الاوروبي المعاصر ·

مامن شك ان طبيعة (الحدث) في رواية(الحياة امام الذات) هي التي حددت طبيعة هوية مفردات الكاتب في هذه الرواية ·· وهذا (الحدث) ·· يتلخص في كلمتين : ــ طفل ابوه مجنون ··تحت العلاج في احدى المصحات العقلية · ·وامهفقدها قبل ان يعرفها ·· ربته امرأة فقيرة تعيسة في وسط فقير تعيس · ·هذا الطفل ــ في هذه الرواية ــ هو الذي يروي قصته بمفردات وسطه المتواضع ولكن بحذق روائي عجيب ونادر ·· هذا الحذق دفع الكاتب نفسه الى الترديد في بعض المناسبات (شخصية الطفل ــ بطل الرواية ــ شخصية غير واهنة والا فانه سيكون طفلا كريها قذرا ·· هناك كلمات لايستعملها اي طفل دون ان يحمر وجهه ــ كالحب والصداقة الخ ·· ولكن طفل هــذه الرواية ليس كالاخرين مع انه يبكي دائما لاشياء حقيقية وواقعية) ··

سيدهش القارىء عندما يفاجئه هذا الطفل ·· بسؤال استغرابي كهذا : ــ

ــ هل يمكن ان نحيا بدون حب ؟

فيتردد الرجل العجوز في الاجابة ·· ولكنــه ينزل اخيرا عند الحاح الطفل فيجيب وهو يحني

رأسه نحو الارض خجلا :ـ

ـ اجل !

يبكي الطفل .. ويبكي . لانه لايقدر على استيعاب هذه الحقيقة المرة .

طفل (اميل اجار) في روايته هذه طفل استثنائي بلا شك باستكناه اكثر مواقفه الحوارية الاخرى .. ولكن الكاتب ينبهنا في مناسبة اخرى الى حقيقة اكيدة للتخفيف من تكثف دهشتنا نحو هذا الطفل الذي نحسبه دائما استثنائيا .. فيقول :

(الاطفال عموما فظيعون جدا . فهم ـ بعفوية ـ ينكاون من الجراح ويتكلمون احيانا مباشرة وببراءة في اشياء يحاول الراشدون ان يخفوها .. وان يخادعوا انفسهم فيها .. نحن نقوم على تربيتهم .. وتربيتهم تعني بالنسبة لنا منعهم من وضع اصابعهم باستمرار على مواطن الالم).

ثم يقول ـ الاطفال يبدون لي ـ دائما ـ وكأن عندهم سر معين ليس كسر (اليس في بلاد العجزات) ولكنه سر اكثر اهمية !

اذن .. (مجانية التعبير) في الرواية لم تات اعتباطا .. وانما تولدت عن ضرورة فنية وفكرية . .

● العرب واليهود في الرواية :

الكاتب يجمع في روايته (العرب واليهود) وهذا ما يعد حدث له ابعاد فكرية واجتماعية عند القارىء الاوروبي الواعي .. او حدث مسل مثير للتشويق والمتعة فقط عند القارىء الاوروبي العادي .. ولكنه على اية حال عند القارئين من المستويين ـ الواعي والعادي ـ يتخذ سمة انسانية تثير في النفس عددا من العواطف المتنافرة .. المتضاربة .. فالعرب واليهود عند الاوروبيين عموما

(الحرب) قائمة بينهم على الصعيد الجماعي . وعلى الصعيد الفردي منذ قرون ساحقة .

وعملية الجمع بينهم في الواقع او في الخيال الرحب مشروع (انساني) معقد .

هذا البعد (الانساني) عند الاوروبيين عموما بلغه اميل اجار بسهولة .. فالطفل بطل الرواية عربي ومربيته يهودية واسمها (روزا) .. وهي تربي معه اطفالا اخرين يهودا وعربا في مكان واحد .. وقد امعن المؤلف في بلوغ هذا الهدف بايراد كثير من العواطف الودودة .

عند القارىء الاوربي (الواعي) خصوصا ربما اثارت عملية (الجمع) هذه بعدا فكريا هاما .. وهو (العنصرية) .. خاصة اذا اضفنا الى اليهود والعرب من ابطال الرواية ابطالا اخرين كان لهم نصيب واضح في عمل اميل اجار الروائي اعني السود ..

فهو ان اخذنا بظاهر الحدث ولم نحاول ... استقصاء خلفيات معينة يحارب العنصرية ... اما ان اخذنا بقبول مبدأ مخادعة العقل الباطن فان اشياء كثيرة في الرواية تخفي وراءها نزعة عنصرية هامة .

ولكن المؤلف نفسه حاول ان يدرأ احتمال هذا البعد سلبا او ايجابا فقال :ـ

(عملية خلط العرب باليهود والسود لم تكن استيحاء من اية قضية سياسية او عنصرية .. انا ارفض ان اتكلم عن العنصرية لانها واقع !!

٨

فلماذا نخلق ضرورة لتحطيم الابواب المفتوحة سلفا ؟!)

اذن عملية التعقيد الفكري للعنصرية عندالكاتب امر وارد ·· وهو يعلم ان الاوربيين عموما ·· يتمتعون بنصيب وافر من العنصرية وخاصة ضد السود ·· وفيهم من يكره العرب وفيهم من يكره اليهود وفيهم من يكره العرب واليهود في انواحد ··ولكن كلمة (يكره) هذه غالبا ماتتخذ عند الكثيرين هنا معنى العنصرية ولكني ابرؤها من هذا المدلول بالنسبة للعرب واليهود ·· ربما وجدت لها تفسيرا اخر في عقدة نفسية واجتماعية اخرى هي (الاحتقار) ·· وهي على مستوى مرارة العنصرية او اشد ·· فالاوربيون يكرهون اليهود لانهم يحتقرونهم ·· وهم يحتقرونهم لاسباب تاريخية حافلة بالنذالة والجشع وعقدة التصور الخ··· والاوروبيون يكرهون العرب لانهم يحتقرونهم ايضا ·· وهم يحتقرونهم لرواسب حضارية معينة ·· فالعرب ـ مثلا ـ رمز التخلف والقعود في الحياة والعلاقة الاجتماعية ·· والذي يدعم زعمي هذا هو ان كل دول العالم الثالث او الدول النامية مقاسم العرب في هذا (التقويم) عند العامة من الاوروبيين ·· هذه حقيقة مرة واليمة ولكنها مباشرة وراهنة ·

من هذا المنطلق يمكن ان نصل الى امكانية احتمال بعد اجتماعي لعملية جمع العرب واليهود والسود في رواية اميل اجار · ·وامكانية ورود هذا الاحتمال تزداد وضوحا عندما نفترض ان (مجانية التعبير) عند اجار انما جاءت على انها مجرد شعوذة واستهجان للغة الدلبثة الفقيرة ·· وعندما نجد ان اختيار هذه الطبقة لم يكن من الفرنسيين او الاوروبيين انفسهم وانما من العمال من جاليات دول العالم الثالث المهاجرة في اوربا ·· وهي جاليات غالبا ماتكون فقيرة ويائسة ·· جاءت للعمل · وهذا العمل غالبا مايكون في مستوى الخدمات العامة ·· كفرسونات في مطاعم صغيرة مثلا

هذا البعد الاجتماعي الذي نعنيه هو صلف·· الالة الميسورة على الفئة الفقيرة والمزلف انما اختار مهاجري دول العالم الثالث امعانا في دغدغة هذا الصلف وتاكيدا على اثارته لانه يعلم مسبقا ان الفقير الاوربي يفوق الفقير الاخر حياة ومعاشا فعزوفه عن هؤلاء واختياره لتعساء البلدان المتخلفة انما جاء من باب المغالاة المشروطة لاثارة الحدة القصوى في ذلك الصلف ··

والكاتب بهذا انما يعود الى استعارة بعض سمات الادب القصصي الاوروبي في القرن الماضي والذي كان يحرص في اكثر الاحيان على استجلاب بعض الصور المثيرة للسخرية والضحك في الحالات الاجتماعية الدانية لغرض رئيسي واحد وهو الاستحواذ على اعجاب الصلف البورجوازي ·· واضحاكه وتسليته ·· وفي رواية اجار يمكن ان نجد تدليلات غير قليلة على وجود مثل هذه الصور الاستجلابية المثيرة لضحك الوقحين من الموسرين الاوربيين ·

كل هذه الابعاد تبقى موطن نقاش طويل لاينتهي ينبني على تفسيرات متعددة واردة الاحتمال ·

واميل اجار نفسه يبقى لغزا محيرا للرواية الفرنسية الحديثة · ·سيحمل لها روحا جديدة·· وسيحمل لها مشاكل جديدة ايضا ·